

الصورة الإنسانية للرسول (ص) في القرآن



(مُرْسُولُ اللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفْرَانِ رُحَمَاءُ بِأَيْدِيهِمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) (الفتح/ 29)، (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) (التوبة/ 128)، (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم/ 4).

هكذا كانت صورته في القرآن؛ كانت الصورة التي تعبّر عن عمق إنسانيته في كلِّ إنسان دعاه إلى الله وعاش معه، وفي كلِّ إنسانٍ أعطاه وحاوره. كان الإنسان الذي تتفايض إنسانيته من عقله، فيتحرّك عقله بكلِّ الفكر الإنساني المنفتح على الحقِّ كلِّه، وكانت إنسانيته تتفايض من قلبه، فكان قلبه القلب اللين الرقيق الطيّب، الذي ينفّث على أعدائه ليحبِّ لهم الهداية، كما ينفّث على أوليائه ليحبِّ لهم الاستزادة من الإيمان والتقوى.

كانت إنسانيته (ص) تتفايض في كلِّ حركة، فكانت تتفايض في يديه بالعطاء، وفي رجليه عندما يسير بهما إلى أن يُغيث ملهوفاً، وإلى أن يُنقذ بائساً، وإلى أن يزور مريضاً، وإلى أن يتحرّك في كلِّ ما يرتفع بالإنسان في أعلى الدرجات.

ونحن عندما نتذكّر رسول الله (ص) في ذكرى مولده، فإنّنا مهما تحدّثنا عنه، ممّا تحدّث الناس عنه في صفاته في نفسه، فإنّنا لن نستطيع أن نبلغ ما تحدّث به الله سبحانه عنه.

لذلك، نحن هنا من أجل أن نعيش مع رسول الله (ص) أخلاقه وإسلامه وإيمانه وجهاده وشريعته، لأنّ رسول الله (ص) ليس مجرد إنسان عاش في التاريخ، ولكنّه أيضاً نبيٌّ بقي في عقولنا عقلاً، وفي قلوبنا قلباً، وفي حركتنا دعوةً وجهاداً وعطاءً، لذلك، نحن نولد دائماً برسول الله (ص) عندما يعيش رسول الله (ص) فينا.

وهكذا، ينبغي أن يكون فينا شيءٌ من رسول الله ومن إيمانه وروحانيته وخلقه وكل سيرته، وقد قال لنا الله سبحانه وتعالى، إن عليكم أن تصعوا رسول الله نصب أعينكم في كلماته وسيرته وفي كل ما عاشه وفكّر فيه، عندما تعيشون مشاكل الحياة، وعندما تفقدون الطريق المستقيم، وعندما تكثّر عليكم الضغوط، وعندما يتحدّاكم الكافرون والمستكبرون.

وربّما يضعف بعضكم، ويسقط بعضكم، ويخاف بعضكم أن يتحدّث عنه الناس بسوءٍ، أو يتّهمه الناس بغير الحقيقة. افتدوا برسول الله، فلقد قالوا عنه إنّه ساحر وكاهن وكاذب وشاعر، (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) (الفرقان/ 5)، ولكن رسول الله (ص) - وهو يستمع إلى ذلك - رفع عينيه إلى السماء، ولم يسمع كل هذه الكلمات، ولم يواجه كل هؤلاء، بل قال لربه في ابتهالٍ خاشع: "إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي".

الرسول القدوة

وتركها رسول الله لكلٍ داعية ومصلح ومجاهد من بعده، عندما ينطلق الذين يسبّون ويشتمون ويتّهمون، ليقول لربه - وهو في زحمة كل ذلك - "إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي"، وهذا هو التوحيد الذي يدخل في العقل، ليجعل العقل ثابتاً في الله، ويدخل في القلب ليحمله نابضاً بالله، ويدخل في كل حركة الحياة ليحعلها متحركة باسم الله. علينا أن نواجه الحياة كلّها باسم الله، لأنّ الله وحده هو الذي يرعى مسيرتنا، وقد قالها رسول الله (ص) ومعه صاحبه في ليلة الهجرة، والقوم يقتربون منه خطوةً خطوة، وليست هناك إلا بضع خطوات بينه وبينهم، وكان صاحبه يهتز ويرتعد ويخاف ويعيش الحزن، وكان رسول الله الذي عاش السكينة الروحية في قلبه والطمأنينة الإيمانية في عقله، كان يشعر بالفرح والقوم يتحاورون: هل ندخل؟ كان الهادئ، (إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ الْعُلْيَا) (التوبة/ 40).

الرحمة الإلهية

هذا هو الخطّ عندما نواجه المستكبرين والظالمين والكافرين وكلّ المنحرفين، (إِنَّ اللَّهَ مَعَدَا) في عقولنا يشرق فيها ليسدّ د عقولنا، معنا في قلوبنا ينبض فيها ليوافقنا في قلوبنا، معنا في كلّ الطريق؛ (لَقَدْ كَانُوا لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب/ 21).

لتكن أقواله هي المنهج في كلّ أقوالكم، لتكن أعماله المنهج في كلّ ما تعملون، وعلينا أن نعيش معه: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ - الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، وَالَّذِينَ جَاهَدُوا وَهَاجَرُوا مَعَهُ، فَعَاشُوا عَقْلَهُ وَرُوحَهُ، وَاقْتَدُوا بِهِ - أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ - لَيْسَتْ شِدَّةُ الْقِسْوَةِ وَالْعَقْدَةِ، وَلَكِنَّهَا صَلَابَةُ الْمَوْقِفِ أَمَامَ كُفْرِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَصْلَحُونَ الْإِنْسَانَ فِي الْحَيَاةِ كُلِّهَا - رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (الفتح/ 29)، قد يختلفون في عوائلهم وفي مصالحهم التجارية - وهم كانوا المختلفين في كثير من أوضاعهم وأفكارهم - ولكنهم جمّدوا ذلك، أو أنّهم أعطوه جرعةً من الإيمان، فكانوا يختلفون في العائلية وفي ماليّاتهم، ولكنهم كانوا يعملون على أن يكون الإيمان هو الحكم.

فقد كانوا يسمعون قول الله عندما يختلفون - واسمعوها جيّداً - (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (النساء/ 65).. (وَمَا كَانَ لِمَنْ لَّمْ يَمُنْ وَلَا مُمْؤَمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) (الأحزاب/ 36). وهكذا، كانت الرحمة الإلهية المتحرّكة في الرحمة الإسلامية في السيرة النبوية، المنهج الذي سيطروا فيه على عصبيّاتهم وخلافاتهم، إيماناً وحقماً وشرعاً ومنهجاً للحياة، ونحن إذا سرنا على هذا المنهج، فسنكون معه.

